« الذين لا يبكون » لعايدة مطرجي ادريس

معلم جديد في القصة القصيرة

بقلم احمد سعيد محمديه

ميزة عائدة مطرجي ادريس في مجموعتها القصصية « الذين لا يبكون » انها تمسك بيد القارىء وتنساب به الى عالم عابق بالحنان الودود والعاطفة الحادبة .. الى عالم شفيق فيه حب ولفة ، وفيه رقة عذبة يبرز منه الاخ والزوج والابنة ، والوطن والقضية والشعب .

وتفعل عايدة مطرجي ذلك بتوفيق ـ في بعض القصص ـ بين عالم الانسان الخاص وعالمه العام ، وتمازج بين العالمين بحنكة ودربة ، وتضفي عليهما ـ مع ذلك ـ جو العقل الذكي فترى الافكار ـ مثل العواطف الصادقة ـ تسري منزنة في عروق عالمها لتشهد للكاتبة انها واحدة من القنانات صاحبات القدرة ، اللواتي نهن ميزه المزاوجة بين شكل العمل ومضمونه ، وبين العاطفة والعقل ، وبين طموح الاسرة وطموح الوطن .

وفي حسابنا ان هذه المحامد هي المعالم القوية التي تمثل شخصية عائدة مطرجي قصاصة ، ونعتقد انها لو فقدت عنصرا من هذه العناصر ـ وهذا واقع في بعض القصص الاخرى ـ لكانت مجموعة العيوب الفنية تمثل خطرا اكيدا على الكاتبة وتجعل القارىء الجاد والناقد المخلص ينصرف عن نتاجها .

الا ان عائدة قد استطاعت ـ من خلال بعض القصص كما قلنا ـ أن تكون صاحبة سلطة على الاثنين ، وبالتالي أن تفرض نفسها ونتاجها كمظهر خليق بالدراسة والاحتفاء .

وعليه نرى أن العيوب الفنية القائمة في مجموعة العمل لا تمثل الخطر القاتل على فنية العمل ـ كمجموعة ـ وانما هي خطر جزئي على الكاتبة ان تعالجه بمزيد من الصبر ومجالدة النفس ، وبمزيد من المراقبة الصارمة .

واذا كنا بحاجة الى وضع عنوان للعيوب الفنية عند عائدة مطرجي فاننا بسرعة نختار العنوان التالي : « عيب عدم القدرة على التركيز » ، فهذا العيب يكاد ان يكون قاسما مشتركا لثلاث قصص من المجموعة هي « الموت والكلمة » ، و « بطلة جديدة » ، و « كان الصوت يبكي » . فهذه القصص اطارها أوسع مما تحتاجه القصة القصيرة ، واحداثها تتراكم وتتتابع بشكل يفقد كل قصة قدرتها على الايحاء المركز ، بل ان احداث هذه القصص قد كسرت الشكل الفني للاقصوصة ، فهي قد اعتمدت طريقة السرد على السجية ، بحيث كانت لقطات مختلفة من كل اقصوصة مما يمكن الاستغناء عنه ـ حتى وان كانت تتمتع بمستوى لائق من الذكاء والاثارة ـ وذلك دون ان تفقد أي أقصوصة ميزتها ولا طابعها الفني .

وفي مجال التخصيص فاننا نود ان نلفت الى قصة «الموت والكلمة» وهي تحتوي على عناصر تشويق كثيرة وعلى افكار طيبة ، ولكنها ممطوطة اكثر من اللازم ، ومستغرقة مدى زمنا ومكانا اكثر مما ينبغي ومتداخلة في اكثر من جو اكثر مما يجب . حتى كادت ان تكون قصة مثل قصص محمد تيمور الرائد قبل اربعين سنة ، عندما كان هذا الفن ما زال وليدا، وعندما لم يكن امام تيمور ولا اقرانه امثال عيسى عبيد وطاهر لاشين تراث يمكن ان يعتمد ذخيرة اللهم الا المقامة بشكليها القديم والمستحدث.

ولقد ادى اتساع الاطار أو قل كسر الحوادث للاطار في هذه الاقصوصة الى ان لا تعني الكاتبة العناية المطلوبة باللحظة الزمنية التي ارادت تصويرها ، ففي اطار القضية خلجات نفسية مختلفة وحالات متباينة ، منها اهتمام الكاتبة بتصوير : « التزام الكاتب » ، ومنها عدم قدرة المثقف على الاستجابة لمعتقداته لحظة الخطر ، ومنها الشعور الانساني ساعة الفزع ، ومنها ايضا حالة الثورة الشعبية ، أو الحرب الاهلية وانعكاساتها على المواطنين .

وبديهي ان هذه مجموعة من القضايا تحتاج الى اكثر من قصة ، ولكن القصة الواحدة ـ ومهما كان الكاتب او الكاتبة قادرين ـ تعجز عن أن تضعها في اطار اقصوصة واحدة دون خلخلة بالشكل أو تحطيم لفنية العمل ، ذلك ان « التركيز » ـ وهو سمة الاقصوصة البليغ ـ يفتقد عندما تتوزع قدرة الكاتب على مجموعة من القضايا في آن واحد وضمن كادر معين لا ينبغي له ان يخرقه .

فالكاتب هنا ، بحاجة الى ان يعبر عن نفسه بدقة متناهية، وبحيث يكون لكل عبارة في اقصوصته وظيفة ضرورية ، مثلما يكون لاي خاطرة عمل عضوي ، فكل ما في القصة القصيرة من وقائع وشخصيات ومعان انما يهدف الى تصوير حدث متكامل واحد يجلو لحظة معينة فكرية او نفسية . فاذا ما افلت الزمام من يد الكاتب ـ مثلما حصل في هذه القصة مع عائدة مطرجي ـ واتسع المدى الذي يجري فيه الحدث ثم تفرع عن الحدث روافد تحمل انطباعات متباينة أو خواطر متفارقة فقل ان العمل او الاقصوصة قد تعرضت للفشل .

غير أن لهذه القصة فضيلة لا سبيل الى انكارها او التغاضي عنها، وهي قدرتها على تصوير ازمة المثقف الثوري الملتزم بمقدار ما يريدها واقعا يحيا في اجوائه ، يتفاعل معها ويتنفسها وتهضمها حياته العملية.

وفيما لو اردنا اجتياز كتاب « عائدة » من صفحاته الاولى لنتوقف قليلا عند كل اقصوصة من اقاصيصه السبع لكان لنا أن نتوقف اولا عند قصتها « دارنا الكبيرة » ثم نتبع ذلك بوقفة عند « الذين لا يبكون » القصة التي اخذ الكتاب عنوانه منها .

وسبب ذلك ان « دارنا الكبيرة » هي افضل قصة في هذه المجموعة ، وهي التي تركت لدي انطباعا جعلني ـ بعد ان فرغت من قراءة الكتاب ـ اتجاوز السقطات الفنية في القصص الاخرى الى ما تمثله هذه القصة وارفعه شعارا في مطلع هذا المقال .

ف « دارنا الكبيرة » هي ما يجب ان تمثل عائدة مطرجي ادريس ،

وهذا ما يجب ان يشعر به الناقد المنصف او القارىء المهتم . لان اي منهما عندما يفرغ من قراءتها سيشعر ان الكاتبة قد اعطت فيها كل ما يمكن ان يعطيه قصاص فنان في اقصوصة قصيرة من غير ان يفلت منه المعيار الذي تقاس به الاقصوصة . و « دارنا الكبيرة » مع هذا قصة لها وجه ظاهر وسريرة باطنة ، فوجهها وجه الاسرة العادية التي يجب ان تتآلف فيما بينها لتصون ارثها الصغير وتحافظ على وحدتها ، وسريرتها تعني قضية الوطن ، والوطن العربي بالذات : كيف يصون نفسه من الغريب ، وكيف يصون نفسه من نفسه ؟ كيف يؤلف بين الجسد الواحد المتناثر ؟

وفي مجال التفصيل – وهو ضروري هنا – فان الاقصوصة تحكي حكاية بيت وارض صغيرة تركهما صاحبهما الى زوجه واولاده واوصاهم ان يحافظوا عليهما ويدخروهما مثلما تدخر الحياة . ثم يموت الوالد فتتولى الام صيانة البيت والارض حتى يفد غريب يحاول ان ينتزع الارض بكياسة ولباقة ويفاوض في ذلك الابن الاكبر فتحرضه امه على عدم الافراط لا بالبيت ولا بالارض الا ان الغريب يذهب الى اشقائه ويعرض الامر عليهم ثم يدب التنازع فيما بينهم حتى يكاد أن يصل الى التقاتل، منهم من يريد ان يتخلى عن الارض ، ومنهم من يصيبه الحسد من الاخ الاكبر ، ومنهم من يريد ان يكون الحكم الفصل في الامر .

ويضعف التنازع الاخوة نفسيا حتى يكادوا ان يتذابحوا فتتدخل الام في اللحظة الحاسمة وتوجه النصل الى نفسها ، الا ان الابن الاكبر ينتزع النصل منها ويقسم لها بالا يخون العهد ويلتفت بعض الاشقاء نحو شقيقهم ويتردد البعض الاخر ، ويبقى قسم ثالث بعيدا .

وهنا ترتفع مناجاة داخلية تهمس بها نفوس الاشقاء الذين التفوا حول شقيقهم الاكبر : « انا ندعوكم ، نحن البسطاء فيكم ، ندعوكم يا اخانا الاكبر ، يا من فهمت سر نداء ارضنا فلوحتك شمس صيفها ، وصلبت عضلاتك رياح شتائها المقرور ، كيف تعيد الينا الراحة ، وتحتبس الدم من أن يهدر ؟ لقد نمى والدنا سواعدنا لتفتك بالغريب الذي سيسلبنا دارنا ان نحن تفككنا ، دارنا التي ورثها منذ الازل واورثنا حبها نقيا طاهرا » .

ويتضح ، من غير مباشرة ، ان ارض البيت الصغيرة هي ارض الوطن العربي ، والام هي الامة العربية ، وان الابن الاكبر هو الرائد القومي في شعبنا ، والاشقاء الذين يتخلون عن العهد هم اولئك القادة الذين سقطوا في يد الاستعمار وفي حماة الحسد ، وان الزائر الغريب هو القوى الخارجية التي تحاول ان تفترس ارض الوطن .

والتناسق دقيق هنا وموزون . فقد احسنت الكاتبة الاختيار عندما اخذت هذه الحدوتة مكانا وانسانا اطارا لفكرتها عن الوطن . وعندما جعلت البيت الصغير عنوانا وتمثيلا صالحا للوطن الكبير .

الا ان ما تتميز به القصة هو الروح الشفيفة العذبة ، روح الانس والحب العظيم .

ويشعر القارىء – بقوة – ان هذه الروح لم تكن في العمل لو لم تكن وراء عاطفة الكاتبة الوطنية الساخنة ، ولو لم يكن وراء احساس الفنان المشع .

ويبدو ان عائدة مطرجي ادريس – وهي كذلك – تراقب العمل العربي بجوارح « المواطنية » الصادقة ، وبعاطفة الكاتب الملتزم الصادق. والا لم تكن لتستطيع ان تسدل على نفسية القارىء هذا الستار الناعم من الحنان والعاطفة والالفة والرقة العذبة : فهي قد كتبت هذه القصة – في زعمنا – تحت وطأة نبض شعوري وفكري حار لم يتماثل مع اي من نتاجها الاخر . كما وانها – وعلى ما يبدو لنا – لم تفكر في شكل القصة من اجل المحتوى وانما ولد الشكل والمحتوى في لحظة واحدة – وهذا ما يجعل الفنان بالتالي اكثر قدرة على التبليغ والتوصيل.ويجعل القارىء يتقبل عمله باحساس راض ، لانه لم يشعر ان في القصة « تركيبة عقاقيرية » .

وقد اوضح هذا الفيض الشعوري والفكري مقدمة القصة والمناجاة الداخلية فيها ، ففي كلتاهما ايقاع زخم للنبل العاطفي ، ولصدق الاحاسيس الوطنية .

كما ان الكاتبة – بجانب هذا التوفيق كله – قد جعلت الاطار باجمعه يخدم الفكرة ، فلم يكن هنالك حشو ولا ادخال ، ولا استطراد وانما كان « التركيز » سمة واضحة تجلي القصة كلها من خلاله .

ومع أن « الكاتب » في العادة يختار عنوان افضل قصصه عنوانا للكتاب او المجموعة فان عائدة لم تفلح في اختيار عنوان الكتاب من احسن قصصها ، بل اختارته من قصة تالية لذلك واعني بها القصة الاولى في المجموعة « الذين لا يبكون »

ويبدو أن وجود التجربة الشخصية في هذه القصة قد جعل عائدة تؤثر هذه القصة – عنوانا على الاقل – على غيرها – كما انها فيما اظن قد التفتت الى الاسم اللامع الموحي أكثر مما التفتت نحو القيمة الفنية للقصة .

ومهما يكن فان « الذين لا يبكون » لا تخرج عن كونها قصة جيدة فيها ملامح النجاح المطلوبة ، وفيها الصفاء الذي يحسه القارىء والناقد مضافا الى ذلك قدرة عائدة على سرقة فضول أو عاطفة من يقرأها، فهي كما اشرنا تملك قدرة ضخمة على أن تنسل بالقارىء بدون اقحام او جبرية الى عالمها ، بل قل – وفي بعض الاحيان الى منزلها الزوجي – وهناك تتحكم به – بدقة وسياسة – فتعرض عليه شؤونها وقضاياها وما ارادت ان تبلغه امانة وواجبا .

ومع أن هذه القصة دخول الى عالم الطفل البهيج والى عالم الام الداخلي – وهما عالمان تقل فيهما عناصر الاثارة لان الكاتبة تستبطن النفوس اكثر مما تعرض لحركتها – فان الكاتبة قد استطاعت بنفس القدرة التي تملكها ان تدخل بالقارىء الى عالمها البسيط ، وصورت المشاعر من خلال الاحداث . فتأملاتها الداخلية – في عالمي الام والطفلة – لم تكن تقريرية وانما كانت من خلال مجرى الاحداث .

ومما يذكر في مجال التعميم أن الكاتبة قد ابتعدت عن الاجواء المحلية ، فكل القصص تجري في اماكن بلا ملامح ، فليس ثمة اسماء للامكنة التي تجري فيها الاحداث ، وليس ثمة علامات فارقة توضحصفات الابطال الوطنية او القومية . مما يفقد القصص – جملة – طعمها المحلي او القومي علما اننا لا نريد بالمحلية هنا الاغراق بالتفاصيل الداخلية غير الانسانية للوطن بحيث يفقد العمل عالميته وانما نقصد أن أي عمل يجب ان يبدو انه قد نبع من بيئة معينة تسمه بسماتها دون ان تفقد عناصره الانسانية المشتركة .

واذا استطردنا – في حساب ما يؤخذ على الكاتبة – فاننا نضيف الى انها صاحبة تجربة محدودة – مع انها ليست كذلك في واقعها – فمعظم القصص نابعة من عالم عائدة مطرجي البيتي ، ف « البطلة الصغيرة » رائدة هي ابنتها والكاتب وعالم الكتب – اللذان يبدوان في اكثر من قصتين – هما زوجها وعالمها الضيق – الرحيب – ككاتبة ومنتجة . ويشعر من يعرف عائدة مطرجي ادريس ويعرف زوجها انه قد دخل في كثير من اللقطات الى بيت سهيل ادريس قرب الجامعة العربية وعرف بعض ما تستتر جدرانه عن العيون .

الا ان فضيلة كافة هذه القصص – بجانب ما ذكرنا لبعضها – انها قصص نظيفة بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، فهي تعالج مشكلات على صلة حقيقية بعالمنا القومي معالجة ملتزمة متزنة ، وهي تمزج بدربة بين الحياة الفردية للانسان وحياته القومية ابهى مزج ، كما انها قصص مخلصة للحياة والانسان والقيم الجماعية . ونعتقد أن ميلاد هذه المجموعة محطة طيبة للقصة القصيرة في لبنان يجب ان نتوقف عندها تأملا وتحية . كما وانه يجب دعوة صاحبتها عائدة مطرجي ادريس الى ان تكرس نفسها للكتابة القصصية وان تكف عن الترجمة وسواها فيما لو كانت تأخذ منها الوقت والقدرة .

أحمد سعيد محمدية